قضايا ثقافية

تساؤلات واقعية (١)

الحقيقة الى أين؟

يصف العارفون الحقيقة بأنها وحدة، وهي حين تمددت خارج محيطها المطلق عكست مكنوناتها في صور وأشكال متعددة... وما الواقع الذي نحيا فيه حاليا سوى تجسيد لأحد تلك الانعكاسات، لا بل هو صورة أو شكل من أشكال الحقيقة ويمثل جزءاً منها، أو بُعداً من أبعادها...

وإذا ما تساءلنا عن إمكانية استشفاف الحقيقة ونحن نحيا ضمن هذا البعد الملموس، أيّ البعد الماديّ للحقيقة، فاننا نصطدم عادة بمقولة أن امكانيّات الفكر البشري محدودة، وبالتالي يتعذّر عليه ادراك ما هو غير ظاهر او غير ملموس، رغم هذا الاعتقاد السائد، فان التاريخ حفل بنظريّات عديدة أطلقت لتعديل بعض المفاهيم التي سادت طويلاً، وقد تعرّض أصحابها في حينه للاضطهاد بعد ان أتهموا بالكفر، او بالهرطقة والإلحاد... علماً ان الكثير من تلك النظريّات أصبحت هي بحدّ ذاتها بعد حين، حقائق علمية ثابتة ومعترف بها.

ان هذا الواقع مؤشر مهم، على أن الشخص المتعصّب اذا ما تخلّى عن الانغلاق الفكري، وحرّر التساؤلات الكثيرة التي تدور في ذهنه من عقدة الأعراف والتقاليد، فانه سيجد آفاق المعرفة مفتوحة واسعاً أمام كل بحث جاد ورصين، وأيضاً أمام كل متسائل ينشد الايمان المبصر، إيمان اليقين، وسيتضح أيضاً للشخص المنفتح، ان في واقعنا الحياتي الكثير من المرايا التي قد تكون بعض رموز تلك الأبعاد الخافية من الحقيقة منعكسة فيها، فلطالما أزيح غبار الزمن عبر الماضي القريب والبعيد عن بعض تلك المرايا، فسطعت الكثير من الحقائق التي غشاها الجهل بأقنعة الوهم والضلال...

ان الانسان الباحث، اذا ما أراد الانتقال من التنظير الى التطبيق الذي يؤدي الى التحقق، وذلك من خلال غربلة كل نظرية لا تجد الى التطبيق سبيلاً، فانه لن يجد سوى درب واحدة سالكة، هي درب الباطن الانساني التي أوصلت الكثير من قبلنا ليس فقط الى التحقق، بل الى اليقين الذاتي الذي لا يحتاج الى أيّ تأكيد خارجي، فأحاسيس الداخل هي الاصدق، لان هذا الداخل مكوّن من أجهزة وعي النفس البشرية، التي هي مركز انعكاس إحدى صور الحقيقة الأقرب الى عالمنا الارضي... فالنفس البشرية هي مرآة الذات الانسانية، تلك الذات التي كانت ولا تزال هي أيضاً المرآة التي عكست في البدء جمال الروح الانسانية، اما الروح، فهي الصورة الأكمل والأبهى للحقيقة الازلية، وهي حين تمددت عند الإطلالة الأولى للخلق خارج الكيان الإلهي، أضحت بمثابة «سفيرة» الخالق في المخلوق، لا بل علّة الخليقة وجوهرها الحقيقي.

اننا أمام حقيقة كبرى تمددت من عليائها عبر عدة انعكاسات، استقر كل منها ضمن طبقة وعي معينة، حيث انعكست كل طبقة وعي أرقى في طبقة وعي أدنى، فكانا لبعضهما البعض بمثابة المصدر والمركز، وهل يمتلئ المركز إلا بما يفيض من المصدر!...

❖ ❖ ❖

لعل التمعن في مفهوم الفيض والامتلاء قد يقرّبنا الى ادراك الكثير من الحقائق الازلية، فعلوم حقائق الباطن الانساني - الايزوتيريك تخبرنا أنه بفعل الإرادة وبواسطة المحبة، ومن أجل المعرفة... نطق الله الكلمة، فتحقق فعل الخلق! وهكذا كان إرادة - محبة - معرفة مددها الخالق من نفسه وجسّدها في الانسان... وتوضح هذه العلوم كيفية تمدد المعرفة من الكيان الالهي حيث استقرت أولاً في الكيان الروحي للانسان ثم في الجسد المادي، فظهر وكأن هذه المعرفة تمددت من عالمها المطلق في ثلاثة أبعاد: بُعد الهي - بُعد روحي - وبعد مادي، وكل من هذه الأبعاد تكوّن من ثلاثة أقانيم هي الإرادة - المحبّة - الوعي...

لكن عندما كانت المعرفة لا زالت كائنة في الكيان الالهي، كانت في حالة وعي، هو من طبيعة ذلك الكيان الذي كان يحتويها حينذاك، أي في حالة وعي الهي، انما في حالة لاوعي روحي ايضاً في حالة لاوعي مادي، فكان عليها (أي المعرفة) كي تنعّل البعد الروحي والبعد الماديّ، اللذين كانا كامنين فيها بالقوة، ان تتواجد في طبيعة روحيّة وفي طبيعة ماديّة...

فكان انه وبفعل الإرادة المشبّعة بوعي المعرفة الإلهيّة، وبواسطة المحبة المتجلّي فيها هذا الوعي ايضاً، فاضت المعرفة من مصدرها الإلهي لتستقر في مركزها الجديد، أي في الكيان الروحي، حيث تجلّت الإرادة الإلهية فيه إرادة روحية، وتوهجت كذلك المحبة الالهية فيه محبة روحية، مما فعل من خلالهما المعرفة فاكتمل ثالوث الوعي الروحي، ثالوث وعي الذات العليا في الانسان.

وبما أن النظام الذي رسمته المشيئة الإلهية قضى بأن تتفتح المعرفة على كامل أبعاد وعيها، فكان لا يزال أمامها ان تكتمل وعيا ماديا، لهذا فقد فاض وعيها الروحي، وعي الذات العليا في الانسان، فانعكست المعرفة في المركز المادي من خلال أجهزة وعي النفس الدنيا في الانسان، التي احتواها الجسد المادي...

وها ان الانسان اليوم لا يزال في طور تفعيل البعد المادي من المعرفة، او بالاحرى هو حاليا يستعيد تذكر ما كان قد تفتح فيه سابقا، اي ما قبل الطوفان الاكبر قبل سقوطه المريع في اواخر عصر قارة الأتلنتد، حيث كان قد وعى الجزء الاكبر من المعرفة المادية، بفضل تواصله حينذاك مع بعدها الروحي، حيث كانت الذات العليا ترافق مسيرة تطورة المادي وترعاه.

❖ ❖ ❖

ان انساننا الحالي، انسان ما بعد الطوفان قد استعاد لغاية الآن ما يقارب العشرة في المئة، أو ادنى بقليل من تفتحه السابق وذلك كمعدل عام، أما على مستوى العبقرية الفردية، فلقد توصل البعض وكما أثبت علمياً، الى حدود إعادة تفتيح ما يقارب السبعة عشر الى العشرين في المئة، او اكثر بقليل.

ان هذه النسب المتداولة تشير الى ان التطور بالوعي يتخذ منحى تصاعدياً، هو بطيء على المستوى العام ومتسارع على المستوى الفردي، ذلك مردّه الى مدى قدرة الفرد على المناورة خارج الأطر التقليدية...

❖ ❖ ❖

ما هو السبيل للخروج عن الأطر التقليدية، وكيف يمكن للانسان ان يجد الوسائل التطبيقية العملية، التي تتيح له إدراك أبعاد المعرفة المادية منها واللامادية؟

ان توسيع آفاق البحث والتقصي، يتطلب أولاً ان يتحرر الانسان من قيود الخوف والشك، ومن أغلال الخجل والتردد، فالخوف يجعله دائماً أسير الايمان الأعمى، ذلك الايمان الذي بدل ان يجعل منه الانسان محوراً تتوسع منه مدارات التحقق للوصول الى اليقين، فانه يبقيه ضمن دائرة الشك الذي تغذيه التناقضات الحياتية، بحيث قد يقود جهل الانسان لمسبباتها الى الكفر ربما، او الى التفتيش عن بدائل ايمانيّة يطمح بأن توفر له الملجأ الامين، مما أدى الى تكاثر المعتقدات والبدع ايضاً... اما الخجل فهو هنا نوع من التعصب او الانغلاق يحدو بالانسان الى الدوران في فلك الأعراف والتقاليد، مهما تباينت وتمايزت عنها قناعاته المستحدثة... فيما التردد يجعل المرء في تذبذب دائم بين قناعاته القديمة التي ثبت له عدم جدواها، وبين الجديد الذي يتعرف اليه، فلا هو يُقدم على التعمق في دراسة المفاهيم الجديدة التي تعرض عليه، لاختبارها والتحقق بالتالي من صوابيتها، ولا هو قادر على البقاء أو العودة الى ما أعتاد عليه سابقاً من قناعات، فيجد نفسه حينئذ أسير الحيرة والضياع.

ان تخطي الانسان الباحث عن الحقيقة لعوامل الخوف والخجل والتردد، يجعل وعيه يتسامى الى فضاء الفكر، فيخترق تفكيره حواجز المادة حيث تتقاطع الرؤية بالرؤيا، فيسهل حينئذ استشفاف حقيقة الواقع.

انطوان صباغ

(يتبع: الايزوتيريك واداة الفكر)